الرؤية في شعر ابن الرومي

جامعة الانبار كليه الاداب
الاستاذ المساعد الدكتور
جاسم محمد جاسم

مدخل

ينطلق مفهوم (الرؤية) من وجهات نظر متعددة في النقد الشعري العربي ، ولهذا فإن النقاد لا يتفقون على وجهة نظر واحدة لهذا المفهوم . فالفلسفة ترى (الرؤية) على أنها المشاهدة بالبصر ، وقد يراد بها العلم مجازاً. وقد تطلق الرؤية على مشاهدة الحقائق الإلهية أو على المشاهدة بالوحي أو الإدراك بالوهم أو المشاهدة بالخيال .[١]

يتناول النقد المعاصر (الرؤية) على أنها رؤية الشاعر للأفكار والمواقف والأحاسيس واعتباراته لله والطبيعة والإنسان ، أي ان الشاعر يعبر عن فلسفته في الحياة بطريقته الخاصة التي يرصدها في قصيدته أما تصريحاً أو تلميحاً بحيث لايمكن إدراكها ذهنياً إلا من خلال اللغة الاستعارية للعمل الأدبي [٢].

فالشاعر – إذن – هو الرائي الذي يكشف عن العوالم الداخلية ويتوسل بما هو مرئي ومكشوف للكشف عما هو مجهول وغير مرئي من تطلعات وهموم وأفكار .[٣] وبذلك يكشف شعر الرؤية عن المستور أو المخفي ويزيدنا معرفة بالواقع المحيط بنا ؛ بل حتى بأنفسنا وما تشتمل عليه من قوة وأسى إنساني وتلذذ بالجمال والعدالة . وفضلاً عن ذلك ، فقصيدة الرؤية تكشف عن وجه الكون الخفي [٤] .

نخلص مما سبق أن الرؤية عبارة عن تصور مسبق عند الشاعر للواقع والأشياء والكون . فهو إنما يعبر عن نظرته ازاء القضايا التي تشغل واقعه وتحكم بيئته بإطار ملموس ، بحيث يبث هذه النظرة ويترجمها إلى المتلقي على أنها تعبيرٌ صادقٌ عن الرؤية الحقيقية للحياة .

من هنا يكون تصورنا للرؤية ، التي نعالج فيها رؤية الشاعر ابن الرومي للحياة بكل ما تحمله من نذور البؤس والشقاء والالق والتطلع . ولنا أن نتعرض إلى رؤيته لذاته وللآخر (المرأة) كونها – ببساطة – هي المرآة التي نرى من خلالها رؤية الشاعر وتطلعاته بآمالها وآلامها .وكذلك سنتعرض الى رؤيته للحياة والموت وما تحمل هذه الرؤية من حضور وغياب في كيان الشاعر .

ويتأكد هذا الشعور عندما نستنطق نص الشاعر وكيفية توظيفه لرؤيته في الحياة ، مانحاً اياها بعداً نفسياً جاءت ملامحها واضحة من خلال ذلك التخصيص الذي يوحي باستجلاء أفكاره وتصوير معاناته بعدما سيطر عليه الضعف والوهن ، فضلاً عن أيامه الصعاب التي نقلت صورة الزمن الماضي بكل ما يحمله من مواقف سلبية ساعدت على انهيار القيم الإنسانية في نفس الشاعر مما يجعله يتطلع دائماً إلى غدٍ مشرق وضاء ، وهذا يستدعي منا فهم الرؤية الحقيقية للشاعر بكل تحولاتها و أبعادها من خلال ما احتجنته الصفحات اللاحقة من نصوص شعرية اجتهدنا في اختيارها من مجموعهِ الشعري الضخم التي طبعت مسار حياته على وفق رؤاه الذاتية .

* رؤية الذات

يبدو واضحاً أنّ تعامل ابن الرومي مع الذات كان موضوعياً ، وهذه نتيجة مسبقة لعدم توافقه مع المجتمع ، لذا نرى الغموض والتشاؤم يكتنفان حياته ، فهو يتحرك في اتجاهات مبعثرة ، جعلته يسقط نظراته ورؤاه على كل ما يتعارض مع هذه الحياة التي تشكل بمجملها قضية دائمة للقلق والتساؤل عما هو مجهول ، من هنا تتشابك عناصر الذات لديه لتعبر عن القلق الروحي الذي ينتابه . فالموقف كلّه ينطوي على عنصر المفارقة الحادة بين الشاعر وذاته ، ويبدو أنّ شعور ابن الرومي بالنقص (عقدة الأصل) كان قد أفقده هويته ، وهذا مما دفعه أن يفتخر بأصله ((حتى صارت روميته ... مفتاح شعره ونفسيته))[٥] كما في رؤيته لذاته هذه :

آبائي الـروم توفيلٌ وتوفلـسٌ ولم يلدني ربعـي ولا شبـثُ

وما ذهبت إلى فخرٍ علـى احدٍ لكنّه القول يجـري حين يبتعثُ [٦]

إنّ تكوّن هذه الرؤية عند الشاعر يشير إلى عمق ما تعانيه الذات من انحسار وتقوقع ، وهذا دليل على أن المعايير الأخلاقية في المجتمع قد أصابها الضياع ، وتستدعي دوال الأسئلة منّا أن نفهم معاناة الشاعر على نحو تقابلي مع الذات المنكسرة خارج دائرة التعبير ، ولكن المسافة مع الآخرين تبقى ممتدة حين يكون الشاعر بمنأى عن تعريضهم وازدرائهم به .

ويبدو أنّ ابرز ما استحوذ على عقلية ابن الرومي ووجهة تفكيره ، هي مسألة الانزواء والانكفاء عن الناس ، ذلك أنها أهم ركائز حياته ، فالشاعر يرى أبناء مجتمعه رأي العين ، لكن تعامله معهم يشوبه الحذر . ويثير هذا التداخل علاقات جدلية هي من صميم التجربة الداخلية للشاعر ، ويزيد من عمق هذه الدلالة ارتباطها بالفشل في التجانس مع الآخرين ؛ لإنها نابعة من الوحدة والتفرد . والذات ، هنا ، تريد أن تقطع كلّ علاقة بينها وبين المجتمع . ولعل هذا التناقض والالتباس هو الذي يثير وحشة الشاعر واغترابه عن الآخرين؛ لأنّ ((عبقرية الفنان تجعله غريباً عن المجتمع الذي يعيش فيه لأنه بحكم تركيبه العقلي والوجداني وبحكم خبراته الخاصة غير الشائعة وغير المتسمة بالعمومية وفردانيته وتفرده يجد انه عاجز عن الانسجام مع الناس فيما يلهون فيه ، فالكثير من المشاغل التي تجذب انتباه الناس الآخرين تبدو سخيفة في نظر الفنان فهو يبحث شعورياً ولا شعورياً عن غير المألوف))[٧] .

لقد كان ابن الرومي يسعى إلى التطهر والنقاء من كل ما علق بمجتمعه من آثار سلبية وكان يصبو إلى ذاته عن كل ما يجري في البيئة المضطربة بالأفكار والرؤى ، لذا نراه متشائماً ، فهو يرى الأشياء أكثر من إدراك غيره . حيث تتولد

((في الانا (الذات) من هذا الاكتشاف حساسية خاصة ، حادة يشدّ بها القلق نتيجة لاتصالها وتميزها عن المجموع))[٨] .

وفي هذا التصور يمكن لنا أن نكتشف جزءاً من وعي الشاعر في الحياة ، وطبيعة تعامله مع مفرداتها بكل ما تحمل من نذور القلق والاضطراب ، فهو عندما يريد أن يتوشح الواقع ويغوص في تجاوزاته ، فان رؤيته الذاتية تنعكس على الزمان وما يحويه من اغتصاب لحقوق الآخر :

ورجالٌ تغلّبوا بزمانٍ أنا فيه وفيهمُ ذو اغترابِ

غلبوني به على كلّ حظٍ غير حظٍ يفوتُ كلّ اغتصابِ [٩]

إنّ ذات الشاعر تدرك فعالية الزمن وتقلباته ودورانه الذي يدفع بكل أمل يرتجى إلى الوراء ، لذلك فان تغيير المسار وما يتبع ذلك من تحولات كبرى في حياة الناس ، ترك أثراً عميقاً في رؤية الشاعر وجعله يندب حظه العاثر من خلال انعكاس العالم على ذاته ، ولعل رؤيته هذه كشفت زيف الواقع واختفاء الحقيقة ، فبات غريباً يشعر بالانفصال عن جماعته ومجتمعه .

وبما أنّ الشاعر ((شخص متحرر من القوالب المنطقية والقوالب الواقعية))[١٠] فإنّ رؤيته الذاتية تندرج تحت وصاية الزمن ، لكونه هو الأكثر فاعلية في حياة ابن الرومي ، وهذا انعكاس للواقع الموضوعي (الآخر) فالرؤية بهذا المعنى تكون أكثر عمقاً وشمولاً مما هو موجود في مظهر هذا الواقع ،أي إنها إدارك لمقولات تكشفها التجربة الآنية للشاعر بوصفه ملتزماً بافتراضات معينة عن الواقع والمجتمع ، ومنكراً – في ذات الوقت – افتراضات أخرى . وهذه الرؤية هي تفسير جديد لواقع جديد في مجتمع غير متجانس .

وهكذا تتحول رؤية ابن الرومي إلى محاولة للتوحد والانصهار مع الماضي ، وهذا لا يمنع أن نقول ، إن تحولات الشاعر الذاتية ما هي إلا نتاج للعصر الذي يعيشه ، وتمثلٌ لمعطيات القيم والمعايير التي تحكم هذا المجتمع والتي تشعر الشاعر بالخوف والجوع والوحشة :

فمـلتُ إلى خـانٍ مُرثٍّ بناؤهُ مَميلَ غريقِ الثّوبِ لهفــانَ لاغبِ

فـلم القَ فيه مستراحاً لمتعبٍ ولا نُــزلاً أيّان ذاك لِسـاغبِ

فما زلتُ في خوفٍ وجوعٍ ووحشةٍ وفي سهرٍ يستغرقُ اللـيل واصبِ

يؤرقـني سقــفٌ كأني تحتهُ من الوكفِ تحت المدجناتِ الهواضبِ[١١]

إنّ رؤية الشاعر انسحبت إلى عالمه الداخلي الذي يهيمن على مناخه التعبيري، فالذات حين ترزء نفسها ، فهذا يعني أن الاتصال مع الواقع لم يكن ذا جدوى في سياسة الشاعر ، فالعودة إلى الماضي واسترجاع الزمن ، يدلنا على أن ابن الرومي لصيق بالماضي ، لأنه – ببساطة – كان سبباً خالصاً في توحده مع الآخر . وهذه واحدة من حالات الصراع المؤجلة بين الذات والذات .

ولأنّ الرؤية الذاتية تشكل نظاماً من العلاقات الإنسانية التي تتصل بجوهر التفاعل النفسي بين الشاعر وذاته ، وما ذلك ، إلا تشكيل حي لمخيلة الذات التي ترصد متغيرات الواقع المضطرب بطريقة تجعلها نهبة للأحاسيس والمشاعر التي فرضتها أرضية الاغتراب عن المجتمع .

إنّ تباين الطبقات الاجتماعية في المجتمع العباسي ، كان له بالغ الأثر في تكوين شخصية ابن الرومي ، فكانت رؤيته للأشياء تسير وبحسب وضعه الطبقي في المجتمع ، وبذلك يكون الانفصال أكثر عمقاً عندما يتجاوزه الآخرون . وهذا يتصل على الأغلب بظروف العصر الذي يهيمن على رؤية الشاعر .

وبما أنّ قصيدة الرؤية تستنطق في احد جوانبها الذات وما ترمز إليه من وجود مقترن بهذا العالم ، وشعور بهشاشة هذا الوجود وسطوة الزمن الذي يأخذ مساراً واحداً لا يعود إلى النقطة التي بدأ منها ، ذلك لأنّ وجود الذات مقترن بوجود هذا العالم الذي يلبي حاجاتها ويحقق لها اتزانها ، أو على العكس من ذلك ، فعندما يأخذ الشاعر بالتحول الفاعل في المجتمع المتغير والمتبدل ،عندئذٍ ، تلازم

الذات رغبتها في تحقيق ما تصبو إليه في هذا الكون المجهول والمليء بالتناقضات . وهذه الفلسفة التي يحملها ابن الرومي هي التي أشعرته أن هناك تهديداً بالفناء يحيط به ويشعره بضعف إمكانياته وقلق وجوده وتناهيه ، فكان التشاؤم لازمة من لوازم هذه الذات ، وربما تكون الحاجة للانتماء إلى جماعة هي الخلاص والمنقذ الذي يدور في ذهن هذا الشاعر، ولكنّ هذه الاحتمالية تعتمد على نوعية الذات وما يرافقها من دوافع انفعالية سلبية وايجابية تقرر الاتزان أو الاضطراب على السواء .

ومع أن هذا الموقف يداعب حس التفرد في كل إنسان يعاني الشعور بالانهيار، فانه يمثل الوجه الآخر للتخفي عن الآخرين ، وفي هذا التصور ندرك أن شاعرنا كان يرى الأشياء بعين واحدة ، إذ يترك نفسه تتجاوزه الأحداث ، فيصير غريباً عن ذاته وغريباً عن الآخرين . لذلك فالتصور الذي يدور في ذهننا يداعب طبيعة العلاقة التي تربط الشاعر بالواقع التي أصبح لها كيانها الخاص كما أصبحت تأتي بمعطيات جديدة لم تكن في الحسبان ، وتساعد الشاعر على النظر إلى كل شيء نظرة تأويلية وإبداعية متميزة ، فهو عندما يبتعد عن الناس ، فانه يعبّر عن رؤيته الذاتية التي يقدّمها بجملة أعذار :

ذقتُ الطعوم فما التذذت براحةٍ ... من صحبةِ الأشرارِ والأخيارِ

أما الصديقُ فلا أحبُّ لقاءَهُ ... حذر القلى وكراهة الاعوارِ

ارني صديقاً لا ينوءُ بسقطةٍ ... من عيبه في قدر صدرِ نهارِ

ارني الذي عاشرته فوجدتهُ ... متغاضياً لك عن اقلِّ عثارِ[١٢]

الذي نلحظه أنّ رؤية شاعرنا تستدرج القارىء لتضعه أمام تصور خاص عن أناس زمن مضى ، وهذه الصورة تشكّل في رأينا علامة من علامات التمزق الذي يعانيه المجتمع وقتذاك ، فنرى كم من التمزق تعانيه الذات في بحثها عن آصرة مع الجماعة ، ونحن نقبل هذا التذبذب من الشاعر عندما ندرك روح التغير التي عَلَقَت به، فهي محصلة للأحداث المتباينة والمتنوعة ، يلعب الشاعر دوراً

واضحاً في صياغتها ، إذ لم يعرف استقراراً بمكان ، وهذا غالباً ما يفرض حافزاً جديداً لنزوعه الفردية نحو الذاتية ، ومن ثمَ يفرض عليه إعادة صياغة في مواجهة جديدة.

وقد ينحرف هذا الاتجاه الذي حافظ عليه ابن الرومي ، فنراه يفرد نفسه على أنه يملك قدرة المجابهة التي من شأنها أن تعين على تغيير المجتمع كما قد تعين على تفسيره . وينبثق من هذا الخطاب تشخيص للواقعي (الشاعر) الذي فقد رؤيته بطرق شتّى ؛لأنها تعبير عن مخاض عسير ، يقع الشاعر نفسه في شرنقته ويعبّر عنه بصور مختلفة ، لأنه ينقل الوقائع ويتظاهر كما لو أنَه قادرٌ على تغييرها ، وهذه مكابرة من الشاعر أراد أن ينتمي إليها ، وهي محاولة – في ظننا – لتحويل قناعة العام إلى الخاص ، وهذه رؤية الشاعر البعيدة الأفاق للوصول إلى المنشود ، تدفعه رغبة بعدم الاستسلام واليأس:

أنا ذاك الذي سقته يدُ السُّقـ ... ـم كؤوساً من المُرار رواءَ

ورماهُ الزمان في شِقّةِ النفـ ... ـسِ فأصمى فؤادهُ إصماءَ

وابتلاهُ بالعسر في ذاك والوَحْـ ... ـشةِ حتّى أملّ منه البلاءَ

كلّ هذا لقيتهُ فأبت نفسـ ... ـيَ إلا تعززّاً لا اختتاءَ[١٣]

الشاعر هنا، يتكلم عن نفسه ، إنها المعادل الموضوعي لكبريائه وألقه والثبات أمام رزايا الدهر وتسلطه ، فالشاعر حين يفتخر ، فهذا ((تعالي الذات على فرديتها وعلى غريزة التملك الضيقة وانفتاحها على الآخر انفتاحاً مطلقاً))[١٤] .

نفهم من ذلك ، أن ابن الرومي يطالعنا برؤيته الذاتية من خلال محورين ، الأول : ذاته ، والآخر : الخروج عن تلك الذات وتجاوز النفس . ولكونه إنسان مغلق على نفسه يجوب في عالم الروح الحبيسة المتشائمة ، لذلك فإنه لا يملك سلطة التغيير، لسبب بسيط هو انزواؤه وغيابه عن

الناس ، فكل ما في طبيعته من قلق وروح ثائرة تعبّر عن رجُل الرؤية ، لأنه جسّد قبل كل شيء مصير الرجل الانطوائي المتمرد على كل أشيائه الداخلية .

إزاء كل ما تقدم ، ندرك أنّ شاعرنا عاش في عصر تواترت فيه جدليات الحياة بكل مسمياتها فنتجت بذلك شخصية جديدة ورؤية متميزة وانطلاقة ذات سمات خاصة ، مكّنتهُ من رؤية الحياة بازدواجية الموقف بين الذات والمجتمع الذي يعيش في كنفه حتى صارت العزلة لديه محوراً وهدفاً لقطع كل علاقة بينه وبين العالم المحيط به .

ومن ذلك فإنّ رؤية الشاعر للزمن وما فيه ينطلق من مسلمات الصراع الداخلي الذي يعانيه ، فالزمن الذي كان يأمنه سابقاً نراهُ يخاف منه الآن ، إذ تغيّر فيه كل شيء ، فما كان مجموعاً قد تفرّق ، وما كان حاضراً قد غاب ، وهذا شعور بالخوف من المجهول ، والضياع والتشرد . وهذا الانفصال يدفعه للرحيل والانتقال من المعلوم إلى المجهول ليكتشف ويعلم ويفسّر سرّ وجوده بنفسه[١٥] .

وهذا يعني أنّ انغلاق الشاعر على نفسه محاولة منه للامساك بالزمن والتشبث باللحظة الراهنة من دون الإنفلات إلى عوالم وأزمنة مجهولة . لذا فإنّ شاعرنا كان على وعي بعدم جدوى ذكر ما فات :

رأيتُ الدّهرَ يجرحُ ثمّ يأسو ... يؤسّي أو يعوِّض أو ينسيّ

أبتْ نفسي الهلاع لرزء شيء ... كفى شجواً لنفسي رزءُ نفسي

أتهلعُ وحشةً لفراقِ إلفٍ ... وقد وطنتها لحلول رمسِ[١٦]

نستنتج من هذه الأبيات أن الشاعر في وادٍ وأناس زمانه في وادٍ آخر ، فهو يدرك زمانه مسبقاً ويعي مصيره وسط هذا الذهول من التفرد والانفراد بحقيقة الأمور. وما دام الوعي بالدهر عميقاً وذا حضور كلي ، فإنَ الذات لا تجد أمامها سوى أن تسابق الآخرين وتصورهم بحسٍ عميق ينم عن

طبيعة المأساة التي يعيشها الشاعر ، إنها رؤية الذات كما يستحضرها ابن الرومي في وعيه ((فكلما عرف الإنسان العالم كان غير قادر على اشتهائه أو الرغبة فيه))[١٧] .

لذا نرى أن رؤية الشاعر لذاته ، تسير على وفق أهوائه الخاصة التي كان يحياها في مجتمع مضطرب الواقع ، والذي كان يخالفه دائماً برؤية مستقلة هي من تلقاء نفسه ، يكوّن من خلالها عالمه الخاص بغض النظر عن مخالفته للمجتمع أو اتفاقه معه . فالشاعر يدرك فعالية اللحظة التي يحياها بتقلباتها ودورانها السريع الذي يأخذ كل شيء في طريقه إلى مصيره المحتوم ، فنراه يسابق كل التصورات التي تنبني عليها الآمال ، وهذه تصورات تشعره باضطهاد الذات وولوجها في عالم الموت الذي يخشاه ، وهي رؤية حقيقية لحتمية الأجل الذي يدور في مخيلة شاعرنا ، لذا نراه يتشبث بالحياة كما لو أنها شيء مستعار – إذن– لابُدَّ من التمتع بها والفوز بملذاتها :

خذ نصيباً من عيشك المستعارِ ... قبل ليلٍ مصرّفٍ ونهارِ

فكأنْ قد سَفَتْ عليك السّوافي ... في بطون الملمّعات القفارِ

ليتَ شعري وأين إذ ذاك شعري ... كيف يعفو البلى على آثاري

ليت شعري هل توجف الكأس بعدي ... بحداءِ اللحون والأوتارِ

ليت شعري هل تلبسُ الأرض بعدي ... حبراتِ الربيع ذي النوارِ

أو تهبّ الشّمال عندي بليلٍ ... فتميسُ الغصون بالأسحارِ

درّ درُّ الصبا ودرُّ معاني الـ ... ـلهو لو أنها ديارُ قرارِ

يا قصارِ الأيام مُتعّت لو كنـ ... ـتِ قصاراً موصولةً بقصارِ[١٨]

يستدرج هذا النص جملة من الأفكار تندرج جميعها تحت رؤية تشاؤمية للذات بكل ما تحمل من أمنيات المتعة واسترجاع زمن الصبا فيها ، فابن الرومي – من دون شك – يملك رغبة في التحرر من سطوة الحاضر والعودة إلى الماضي وبعث الحياة فيه من جديد . وهذه الرؤية مبنية في زمانية التوقع ؛ لأنه يخفي وراءهُ أشياء كثيرة يريد أن يقولها في قصار أيامه السالفات ؛ لو كانت هذه الأيام موصولة لكنها لحظات مستعارة في خارطة الزمن المنقضي .

إنّ تداخل المصائب والرزايا في قصيدة ابن الرومي جعلت من رؤيته لذاته تكشف عن كل ما من شأنه أن يخلق نظرة شاملة متأزمة للكون والفن والحياة ، فضلاً عن مزايا هذه الذات وما تحمله من بذور اليأس والقنوط ، ولا يبعد أن تكون هذه الرؤية مرتبطة بشعائر معينة أملتها الظروف الاجتماعية التي يحياها الشاعر بكل مسلماتها . وليس هذا من قبيل التسليم بالأمر الواقع ، ولكنه البحث عن المعنى الجديد للذات ، أو لنقل الميل نحو فلسفة الرؤية وما تحمله من صراع حاد بين العالم الخارجي الذي يمثله المجتمع وبين العالم الداخلي الذي يمثله الشاعر .

ولا شك أن هذه المتطلبات تؤثر على رؤية الشاعر وفكره وسلوكه واتجاهاته ، من هنا ، تحمل الذات في طياتها تجربة الانفعال والانفصال عن الآخرين ، لتتحول إلى حالة ازدواج في الكيان النفسي بفعل ضغوط خارجية أو تناقضات داخلية ، فليس ((الخلق الفني .. في جميع تجلياته ... إلا تعريضاً تصعيدياً عن رغبات غريزية أساسية ظلت بلا ارتواء ؛ بسبب عواطف في العالم الداخلي أو العالم الخارجي))[١٩]

ومن هنا يمكن القول : إن رؤية ابن الرومي الذاتية تتأكد من سماته الشخصية التي طالعتنا بها نصوصه الشعرية ، من أنها ذات مدوّرة بين الواقع والخيال ، ومتأرجحة بين الرفض والقبول ، فتقلباتها هي من نتاج طبع الشاعر نفسه وما يتداخل فيه من تناقضات واتجاهات استدعتها متطلبات الحياة على اختلاف أنماطها .

* رؤية الآخر(المرأة)

تتجلى هذه الرؤية من حراك صادر عن قلق مستمر يتمحور خلفه الشاعر لاستجلاء فعل النفاذ إلى الآخر ، والذي يكشف من خلاله عن ذاته الشاعرة الباحثة عن قهر انفصاليتها الإنسانية باتجاهها نحو الآخر وترك عزلتها وفرديتها ، واستمالته إلى توظيف الآخر وتسليطه على الواقع لإضاءته، وذلك عن طريق كشف التجربة وطبيعتها ووظيفتها .

لذا سنحاول أن نأخذ المرأة مثالاً حياً لتجربة الشاعر مع الآخرين ، كونها – أي المرأة . لا تعدو أن تكون أداة للهو والتسلية في رأي شاعرنا – وموضوعاً للذة والمتعة ونسيان الوجود[٢٠] وحالها كحال الطبيعة [٢١] فالطبيعة زاهية وجميلة إذا أسعدتك ببهجتها ونسيمها العليل ، وقبيحة إذا رمتك بالرزايا والأعاصير .

والدارسون لحياة ابن الرومي يرون انه محروم من المرأة ، فهي في صدود عنه لأسباب منها : [٢٢]

١–انه لم يكن قوي الجسم والبنية ، فصحته معتلة ونفسيته مضطربة .
٢–ضعفه الجنسي ، الذي سببه – على ما يبدو – إسرافه واستجابته العجلى لكل غواية .

من هنا ، فأنّ رؤية ابن الرومي للمرأة كونها مخلوقاً حاول ترميزه ليضفي شيئاً من اللذة في موضوع القصيدة ، ولعله أراد من ذلك القضية المادية النفعية ، فضلاً عن ستر ضعفه وهزالته . وبما أن المرأة تنفر من هذه الصفات عند الرجل ، لذلك ازداد سوء ظنه بالمرأة ، وابتعد عنها وأخذ يناديها بأقبح الألفاظ ، حتى صورها أنها فاجرة ، أو لنقل خائنة لا تعرف الوفاء بالعهود ، كل ذلك لأنها لا تريد قربه ، فكان ردّه عليها أن سلب منها كل فضيلة . ذلك أنّ طريقة تعامله معها كانت تشبه طريقة تعامله مع الواقع نفسه ، فمن الواقع تولد المرأة والشاعر في صراع مستمر ما بينه و بين الواقع ، فالواقع بما يحوي من معاني الكون والوجود والحياة والذات ، هو نفسه الذي تحويه المرأة، لذا فأفكاره الخاصة تعكسها المرأة التي يعرفها ويتعامل معها، كل ذلك لأنه يؤمن بأن الكيفية التي يدرك بها نفسه والآخرين هي اكتشاف حقيقي للعلاقة ما بينه وما بين المرأة :

ولا يَدُ مْنَ على عهدٍ لمعتقدٍ أنـيّ وهنَّ كما شُبهنَ بستانُ
يميلُ طوراً بِحـملٍ ثمَّ يُعدمُهُ ويكتسي ثمَّ يُلغى وهو عريانُ

حالاً فحالاً كذا النسوانُ قاطبةً نواكثُ دينُهُنّ الدّهر أديان

يغدُرنَ والغدرُ مقبوحُ يزيّنُهُ للغاوياتِ وللغافين شيطانُ

تغدو الفتاةُ لها حِلٌ فإن غدَرَتْ راحت ينافسُ فيها الحلُّ خِلانُ

فإن تُبعنَ بعهدٍ قلن معذرةً إنّا نسينا وفي النسوانِ نسيانُ

يكفي مُطاليِبنا للذكر ناهيةً الغالب المشهورَ نسوانُ

فَضْلُ الرّجال علينا أن شيمتهم جودٌ وبأسٌ وأحلام وأذهانُ

وان فيهم وفاءً لا نقوم بهِ ولن يكون مع النقصانِ رجحانُ[٢٣]

إنّ مشهداً كهذا يوحي لنا كم هي المسافة طويلة بين الشاعر والمرأة ، ويبدو أن عوامل آنية ساهمت في النظرة التي تجول في خاطر شاعرنا ، ففضلاً عن استهانة النساء به ، فهو يعاني من تجربة الزمن المريرة وما لحق به من مصائب جمّة ساعدت على تكوين هذه الشخصية الهشّة ، فحالات الغدر والخيانة التي رافقت هذا النص ، هي إشارة إلى غدر الزمان ونوائبه الذي كان سبباً مباشراً في تشكيات الشاعر . وزيادة في الوضوح يمكن أن نشير إلى أن علاقة ابن الرومي بالمرأة هي علاقة متأرجحة تنزع إلى نزعة فكرية منحازة إلى الانزواء التام عن كل مشاهد الحياة ، وهذا يعني أن شاعرنا غير قادر على المواجهة ، وهذه – في رأينا – مقدمة لأزمة جديدة يكون الشاعر أكثر التصاقاً بها .

فالمرأة – إذن – هي السياق الرئيس المعبّر عن رؤية الشاعر وفضح ملامحه، لذا كان الموقف منها ((هو الذي يحدد الموقف من الإنسان ومن المجتمع ومن الوجود بأسره))[٢٤] وهذا الذي يدعونا إلى القول : إن الوضع الاجتماعي لأي مجتمع يفرض نوعاً من السلوك لدى الفرد ، ويتولد عنه استخداماً معيناً في لغة الشاعر وفلسفته في الحياة . فنحن هنا إزاء وجهتي نظر لابن الرومي وهي متناقضة، فهو تارة يذم المرأة ويسخط عليها ، فتكون رؤيته سلبية وتارة أخرى نراه يصور نفسه

محبوباً من كل النساء اللواتي يخطبن ودّهُ ويتهالكن على وصاله وهو يتأبى عليهن ويمتنع ، ولعله أراد من وراء هذا الإحساس أن يتصنع المواقف التي حاول ان ينقلها إلينا ليخدعنا بقرب النساء منه ، ولكنّ الحقيقة غير ذلك ، فلنستمع إليه :

كَتَبتْ رَبّةُ الثنايا العِذابِ تشتكي اليّ طول اجتنابي

واتاني الرسول عنها بقولٍ لم تبينهُ في سطور الكتابِ

أيها الظالمُ الذي قدّرَ اللـ ـهُ به في الأنام طولَ عذابي

لو علِمتَ الذي بجسمي من السقـ ـم وضُرّ الهوى لكنتَ جوابي

فتجشَمتُ نحوها الهولَ والحُرْ راسُ قد هوّموا على الأبواب

... ...

فتباشرْنَ بي واشرفن نحوي بشهيقٍ وزفرةٍ وانتحابِ[٢٥]

إنّ هذه الواقعة التي يصفها ابن الرومي هي تعبير دقيق عن التواصل مع الحياة من خلال المرأة ، فالتجارب المحبطة والانفعالات المعقدة والضغوط النفسية التي يتعرض لها ، أظهرت لنا أنَها تعبير دقيق عن احتياج هذا الشاعر لها، فهي سبب تمرده وشعوره بالقلق . فلا سبيل – إذن – لهذا الطامح لحياة أكثر امتلاءً ، إلا الهروب من هذا الواقع العقيم ، وابتكار حياة جديدة قائمة على نسيان كل ما من شأنه أن يتجاوز رتابة الزمن ، فهذه المرأة وان لم تكن موجودة في مملكة الشاعر فانه يحاول استعارتها ، ويتم هذا كله عبر استحظار كل ما من شأنه أن يمني النفس ويجعلها تواقة لهذه الحياة . مع علمنا أن ابن الرومي حاول أن يخدعنا بهذه الرؤية وبهذا الادعاء . وإذا ما قرأنا القصيدة كاملة ندرك سيلاً من التهويمات التي نقلها إلينا الشاعر ، فهو لم يكتف بالقول أن صاحبته تشتاق إليه وإنما هي متيمة به ، بل راح يذكر أن صويحباتها متيمات به أيضاً . ولو ذهبنا لنعلل هذه

الازدواجية في رؤية ابن الرومي للمرأة ، لوجدنا أنها تكمن في المرأة نفسها ، فهي التي نفرت منه لقبحه ولشيبه ولأمراضه وعلله المتواصلة .

وتبدو صورة العلاقة بين الشاعر والمرأة واضحة المعالم لذا كان سلوكه وفلسفته في الحياة ينطوي من خلال موقفه منها ، فالمرأة هي المرآة التي تعكس الوجه الآخر لابن الرومي ، حتى صارت علامة من علامات تفسير الواقع ومسايرته بالطريقة التي يرتضيها شاعرنا مع هؤلاء النسوة . فالمرأة هي الواقع المحسوس في كيان الشاعر ، وهي أيضاً الملاذ الذي يحاول تجاوز فرديته من خلالها ، كما انه يراها الصورة الحقيقة للحياة ، لذا نرى شاعرنا أكثر التصاقاً بها وإن تعرّض لها ، لأنها هي من يصنع ظروفه النفسية ومعاناته الأبدية مع الحياة . فرؤية (الآخر) متشكلة من رؤية القيم الخالدة التي يحملها .

ولعلنا نلمس هذه النزعة الفلسفية عند ابن الرومي في أكثر من موطن ، فهو يحاول هنا ، أن يجد هويته واستقلاليته من خلال المرأة التي يريدها أن تكون مثل الطبيعة متلونه وأنيقة ومنحازة إليه ليسهل عليه قطفها وجنيها متى شاء :

أجنت لك الوجدَ أغصانٌ وكثبانُ ... فيهنّ نوعان تفاحٌ ورمانُ

وفوق ذينكَ أعنابٌ مهدَّلةٌ ... سودٌ لهنّ من الظلماءِ ألوانُ

وتحت هاتيك أعنابٌ مهدّلةٌ ... أطرافَهنّ قلوبُ القوم قنوانُ

غصونُ بانٍ عليها الدهرُ فاكهةً ... وما الفواكه ممّا يحملُ البانُ

ونرجسٌ بات ساري الطلّ يضربهُ ... وأقحوانٌ منيرٌ والنورُ ريّانُ

ألِفْنَ من كل شيءٍ طيّبٍ حَسَنٍ ... فهُنّ فاكهةٌ شتّى وريحانُ[٢٦]

من الواضح ونحن نمعن النظر في هذا النص ، نجد أن الشاعر نهبة لكل مظاهر الطبيعة وألوانها ، وهذا يعني أن الشاعر تواق إلى ملامسة إحداها والتمعن فيها علّها تكون الخلاص والمنفذ الذي يخلصّه من عزلته وكآبة منظره. ولنا أن نعرف أن هذا الإشكال النفسي والاجتماعي ، ما هو إلا كشف حقيقي وإدراك موضوعي لإبعاد ذاتية جديدة في النفس الإنسانية ، ومن ثمَ إثراء الحياة الاجتماعية للشاعر والانتقال بها إلى الخلاص ، ولا يكون هذا إلا من خلال المرأة التي تطاوع الذات وتنساق لكل نوازعها ؛ لأنه لا قدرة لشاعرنا على مسلّمات الوجود من حوله . وان التعارض ((مع أفق التوقع لا يقوم دائماً وأبداً على رفض أفقنا الخاص ونفيه وذلك أمر مستحيل ، وإنما يقوم على شيء غير قليل من تحدي هذا الأفق ومحاولة المخاطرة به في سبيل تفتح حر))[٢٧] .

والذي نلمسه ونحن نمضي أكثر في تتبع صورة الشاعر مع المرأة ، نجد أنها قد تحولت في نظر شاعرنا ، إلى وسيلة من وسائل خدش الحياة ومعادل موضوعي للانحراف والانفلات من الواقع ، وهذا لا يكون إلا عندما يضيق ابن الرومي بصدود هذه المرأة وانزوائها عنه :

بستان يا حسرتا على زهرٍ ... فيك من اللهو بل على ثمرِ

أما ولؤم البلى وقسوته ... لقد محا منك أحسن الصورِ

يا بشراً صاغه المصوّر من نور ... على سنّةٍ من الفطرِ[٢٨]

فلا غرابة – إذن– ونحن نمعن النظر في هذا النص أن نصّور حال الشاعر وحسرته على فراق (بستان) فالحياة بدونها لم تعد ذا جدوى . وهذه الرؤية للآخر تعطينا تصوراً واضحاً يشير إلى معادلة وجودية ينزع إليها الشاعر ساعة يضيق من الناس ، وهذا ابتكار لواقع جديد يخضع لعوامل ذاتية تنبع من الشاعر نفسه وتجربته ورؤيته ؛ ليفصح عن ازمة الانتقال من تجربة الى أخرى ، فالازدواجية تكمن في شكل هذه التجربة وكيف عاينها ابن الرومي وأيقن ملامحها ، ومهما يكن فأن (بستان) كانت

تعني عملية تحول وبعث وتبدل للواقع ، أما وانّ الشاعر قد فقدها ، فما عليه إلا أن يعيد خلق رؤيته من جديد تاركاً إيّاها لتعبّر عن مغزاها بنفسها .

وربما كان لرؤية ابن الرومي المشحونة بمشاعر الأسى والإشفاق بُعد أو لنقل محاولة لرسم المواقف وتلاحمها مع خصوصيته في الحياة وهذا من قبيل التفاعل المعقد والغامض مع ما يدور في عصر بني العباس . وفي سبيل هذا الإحساس ، تكون الرؤية هي التي تحدد طابع الشاعر وتوجهاته في المجتمع ، ((والشاعر في ثورةٍ نفسية من اجل المساواة والحياة القائمة على العدل))[٢٩] .

ومن خلال هذه الخصوصية احتل شاعرنا موقفه الذي يعبّر به عن رؤية صادقة وصوت يختلج في نفسه فنراه يلجأ إلى تصعيد الموقف ليعيش إنشطاراً بين ما يحدث وما كان يجب أن يحدث ، فيصبح مفهوم الرؤية رفضاً لصورة الواقع بكل مظاهره المعتمة .

وإذا كانت رؤية الشاعر هي التي تحدد ملامح المجتمع وتشترك في تصويره فأنها ترتبط ارتباطاً مباشراً بالقيم المضطربة في عصر بني العباس ، على أن مكامن هذه القيم قد انزوت في ظل ظروف متناوبة ظلت تشكل تحدياً للشاعر محاولاً تفسيرها على أنها الرؤية الحقيقة للمجتمع . وهذا التباين في الموقف يعود أساساً إلى فلسفة الشاعر المتقلبة والتي تنضوي تحت تباين المواقف وما يحمله من اصطناع للرؤية وتقييم للذات .

من ذلك نفهم أن رؤية الشاعر للمرأة قد استوعبت كل أفكار المجتمع ، وهذا اكتشاف حقيقي للعلاقة المتناقضة التي تربط الشاعر بالآخر ، وبالإمكان إدراك هذا التوجه وهذه الرؤية المحددة التي تتعايش معها الذات حينما ننظر في هذا النص الذي يشير إلى حالة التناقض التي تعانيها الذات حينما يكون الآخر مزدوج الطبع :

وغرير بحسنها قال: صفها　　قلت : أمران : هيّنٌ وشديدُ

يسهل القول إنها أحسن الأشـ　　ياء طُراً ويعسرُ التحديدُ

شمسُ دَجْنٍ كِلا المنيرين من شمـ س وبدرٍ من نورها يستفيدُ

تتجلى للنـاظرين إلـيها فشقيٌّ بحسـنها وسعيدُ

ظبيةٌ تسـكن القلوبَ وترعا ها وقمـريّةٌ لـها تغريدُ

تتـغنى كأنـها لا تُغنّى من سكون الأوصال وهي تجيدُ[٣٠]

يبدو من سياق الحال ، قدرة الآخر على التلاعب بأفكار الشاعر والتسليم المطلق بوجوده ، وهذا التناغم يشير إلى التفاوت الحاصل بين الشاعر والمرأة ، فطبيعة العلاقة توحي أن (الذات) مشحونة بمشاعر الاضطهاد ، بينما الآخر (المرأة) فتسكنها الرغبة في الصدود والكبرياء ، وهذا التفسير يضعنا أمام البناء الهش لنفسية الشاعر ابن الرومي ، إذ أن الانكسار بادٍ عليه. إنها محاولة للانتماء والوعي بحقيقة الآخر .

إنّ تجربة الشاعر الشعرية لا يمكن لها أن تتغير إلا من خلال المرأة والتي بدا عليها أنها تمنح الذات توهجاً جديداً ودلالات جديدة ، والذي يبدو ظاهراً أن همّ الشاعر هو تبديل الواقع (الآخر) إذا ما شعر أنه لا يحقق له وجوده في الحياة ، لذا نراهُ قد استعان بالعديد من النساء سعياً إلى رؤية جديدة تحقق له ما يصبو إليه ، فتارة نسمع عن (بستان) وتارة أخرى نسمع عن (وحيد) وغيرهن كثير . ويبدو واضحاً أن ترميز المرأة بهذا الشكل قد بانت واتضحت معالمها ، على أنها تهدف إلى تحقيق رؤية تظهر الشاعر على انه يملك مقومات التأثير وترجمة الوعي الذاتي له كونه يحتاج للآخر دائماً . فوجود المرأة ضروري لوجود الشاعر ومشاركته في الحياة ، ومغادرة المرأة هي مغادرة للحياة بكل تجلياتها وتحولاتها ؛ لأنها تمثل الأمان والخلاص ، والعز وعلو النسب ، وكأن ذات الشاعر تكتسب من ذات الآخر (المرأة) قوتها وفاعليتها ، أنها الذات المليئة بالإسقاطات النفسية من دون المرأة.

* رؤية الحياة والموت

تنعكس هذه الرؤية من خلال الواقع الذي يعيشه الشاعر ، فاستعذاب الحياة والخوف من الموت واحدة من المرتكزات التي يستوطن خلفها الإنسان ، ولعلنا لا نستغرب ذلك ، أن يتشبث هذا الإنسان بالحياة ؛ لأن حب البقاء غريزة متأصلة . وهذا ما يعلل لنا ((تعاظم الخوف في اللحظات التي يتعاظم فيها الإحساس بنهاية الحياة ، بفعل الزمن أو المرض))[٣١] .

فليس عجيباً – إذن– أن نرى الإنسان يتعلق بالحياة ويراها الفرصة الوحيدة لان يمارس فيها كل حريته ، فهي تمارس ((كما لو أنها شيء يمتلك .. يكون الخوف فيها ليس خوفاً من الموت ، وإنما خوفٌ من فقدان أشياء يملكها الشخص ، الجسد ، والذات ، والهوية ، والممتلكات والخوف من السقوط في اللاهوية))[٣٢] ، فالخير الأكبر هو أن يحيا الإنسان والشر الاكبر هو أن يموت ، ولا سيئة عنده لهذا الخير العميم إلا بتنغيص ذلك الشر العميم ،

وكل ما في الحياة من قلة الغبطة أنّ الأحياء يموتون :

كيف العزاءُ وما في العيش مغتبط ولا اغتباطَ لأقوامٍ يموتونا

متى تَعِش فبلىَ الاحياءُ يدركنا وإن نمتْ فبلى الأموات يعفونا[٣٣]

وعلى هذا النحو يقول:

رأيتُ حياةَ المرء رهناً بموته وصحَته رهناً كذلك بالسُّقمِ

اذا طاب لي عيش تنغصتُ طيبه بصدق يقيني أن سيذهبُ كالحَلمِ

ومن كان في عيشٍ يراعي زواله فذلك في بؤسٍ وإن كان في نُعمِ[٣٤]

من هنا ، فأن ثنائية الحياة والموت تهيمن على قصيدة ابن الرومي ، لذا تكون رؤيته نسيجاً متلازماً من اليأس والقنوط مدفوعةً في ذات الوقت بجملة أمور دفعت شاعرنا أن يكون متشائماً متشبثاً بالحياة خائفاً من الموت ومنها : [٣٥]

- **جزعه الشديد على فقدان الشباب ؛ لان في ذلك فقداناً للقدرة على الاستمتاع بالحياة .**
- **خوفه وجبنه من الغد والاغتراب .**
- **وسواسه وتطيره ونفوره من كل ما يرمز إلى زوال الحياة .**
- **تهالكه على اللذات الحسية والشهوية ببطن جاهلية وذائقية .**

من اجل هذا ، نرى شاعرنا يبحث عن حياة أفضل ، وربما وبسبب هذا الاختيار ، استطاعت قصيدة الحياة والموت عند ابن الرومي أن تتمركز في وعيه ولا وعيه ، وتشكل تداعيات وأقنعة ورموز، فتكون لكل قصيدة رؤية جديدة نابعة من وجهة نظر الشاعر يقول :

لعمرك : ما الحياة لكلّ حيٍ اذا فَقَدَ الشباب سوى عذابِ

فُقلْ لبناتِ دهري فلتصبني اذا ولّى بأسْهُمها الصّيابِ [٣٦]

والشاعر على أيّة حال ، يريد الحياة لا يريد غيرها ففيها فرصة التمتع قبل حلول الموت ، وما الإشارة إلى الدهر هنا إلا علامة من علامات الخوف من المجهول :

فبادر الدَّهر بالمناعم والـ لذاتِ واحذر من وشك مرتحلِ

فإن تعذرنَ أن يُجبنكَ بالقو وةِ فاحْتل لطائف الحِيلِ[٣٧]

إنّ المبادرة بهذا الشكل الذي اختلقه الشاعر ، تعني أن الحياة لا يراد لها أن تتوقف عن الحركة والجريان ، لذا فانّ هذه المبادرة هي تعبير حي عن الحياة التي يتمناها الشاعر ، وهذه اللحظة الزمنية المعاشة تجعل ذات الشاعر تتوحد بالأشياء والعالم الخارجي ، وهي بالتأكيد ، لحظة مطلقة ذات قيمة عظيمة تعادل الكون كله ، وعلى هذا فأنّ ما تأتي به الذات من أحاسيس ومشاعر قد تبدو غريبة ناشئة عن تصورنا لهذه الذات المتشائمة . لكن الذي لا يقبل الشك أنّ شاعرنا يحصر ذهنه وفكره من اجل القبض على هذه العوالم وإبرازها إلى المتلقي بكل يسر وسهولة ، من خلال قوله :

رأيت سواد الرّأس واللهو تحته كليلٍ وحُلمٍ باتَ رائيه ينعمُ

فلمّا اضمحلَّ الليل زال نعيْمه فلم يبقَ إلاّ عهدُه المتوهّمِ [٣٨]

وهذا الذي يجعل الرؤية الاستبطانية للحياة تمثل لحظة المزج بين الوعي واللاوعي كما أنها تمزج الخفي والمدرك فيكون الإبداع الفني خلقاً ناشئاً من اللاوعي وفي الوقت نفسه مكوناً من جزئيات فكرية يسيطر عليها الوعي فينتظمها حتى تتحول هذه التأملات التي أرادها الشاعر إلى عمل فني له قوانينه الخاصة في الحياة ((فيصبح الشعر تجربة نفسية تأمليه معتمدة على الحدس أو البصيرة))[٣٩] ، يصورها قوله :

اذا اختط قومٌ خِطة لمدينة تقاضتهمُ اضعافَها للمقابرِ

وفي ذاك ما ينهاهُم أن يشيِّدوا وأن يقتنوا إلاّ كزاد المسافرِ [٤٠]

فالحياة بكل ما تحمله من واقع قلق تفتقر إلى مكونات حيوية لا تحقق للشاعر آماله وتطلعاته ، هي لحظة صعبة وعملية معاناة وتوتر نفسي تحاول الذات تجاوزها والاستعانة بالزمن الماضي لكونه

يكشف كثيراً من الأحداث التي تطيل التأمل .ولعل احساس شاعرنا بالضياع كان نتيجة للظروف الاجتماعية والسياسية المتردية آنذاك . لكن العقاد يرى في أن عصر ابن الرومي ((بخيره وشره وزيادته ونقصه لقائل أن يقول في أطواره ما شاء أن يقول ،وان يختلف في اوصافه ما شاء يختلف ، ولكن وصفاً واحداً من تلك الأوصاف لايجوز فيه اقل اختلاف:ذلك انه كان في خيره وشره عصراً حياً يصنع التواريخ،وليس بالعصر الميت الذي يطويه التاريخ في ثناياه))[٤١]،من ذلك نفهم ان ابن الرومي كان يألم ويصبر لان حياته هي الألم والسرور او لانه لابد له ان يحس ولابد للأحساس من ان يكون بعض الالم وبعض السرور، لذا نراه يزاوج بين الحياة والموت ليضفي لنا طابعاً مأساوياً كما في هذين البيتين :

أأحْيَيْتَني بالامس ثم تميتُني برفْضي وإقصائي ، وحقّي أن أدنَى

ولو أنني أحييتُ ميتاً عشقته لحنّ الذي أثرْتُ فيه من الحسنى[٤٢]

وهنا تتجسد رؤية الشاعر الشمولية للحياة الخاضعة لفاعلية الزمن في فنائه وزواله ، وفي تحوله من الحضور إلى الغياب ، ومن الحركة إلى الكون ذلك أن التغير سمة الوجود والتحولات التي يحدثها التغير قد تعبث بالأشياء . فالإنسان محكوم بهذه الرؤية لذا يحاول دائماً أن يصمد ويثبت ؛ ليؤكد وجوده وحضوره محاولة منه لتحقيق الذات أمام العدم ، والحضور أمام الغياب ، والحياة أمام الموت ، كما في هذا النص :

أبَينَ ضلوعي جمرةٌ تتوقدُ على ما مضى أم حسرةٌ تتجددُ

خليليَّ ما بعد الشبابِ رزيَّةٌ يُجَمُّ لها ماءُ الشؤونِ ويُعْتَدُ

فلا تلحيا إن فاض دمعٌ لفقدهِ فقلّ له بحرٌ من الدّمع يُثمدُ

ولا تعجبا للجلد يبكي فربّما تقطّرَ عن عينٍ من المـاء جلمدُ

شبابُ الفـتى مجلودهُ وعزاؤهُ فكيفَ وأنيّ بعـدهُ يتجلّدُ

وفقدُ الشبابِ الموت يوجد طعُمهُ صراحاً وطعمُ الموتِ بالموت يُفقدُ[٤٣]

يتجلى في هذا النص الاسترجاع الزمني ، فثمة تجسيد لحس الضياع الذي ينبثق من خلال جدلية الحضور والغياب في هذه الحياة ، والتي تتلاعب بأفكار الشاعر ، ولكن يبدو أن أسار الواقع كان اكبر من أن يقاوم ، والزمن الحاضر كان أكثر تحجراً وتثاقلاً ، وعليه فالمعاناة ما زالت مستمرة ، وكأن الشاعر لم يبرح مكانه ولم تكن هذه المعاناة إلا مثالاً للجمود والتحجر والتوقف الذي هو رديف الموت . وماذا ننتظر من شاعر ظل فرداً معزولاً عن مجتمعه سأم تنشيط نفسه وترويضها للمكابرة والثورة بينه وبين الأحياء من حولهِ ، فوشائج الآدمية تنتقل منه إليهم كما تنتقل اليه ليكون شاعراً في جميع حياته ، حياً في جميع شعره ليكون جسماً لاتكون بغيره حياة ، لذلك اكثر في شعره من الهجاء حتى انه مات بسببه ، فـ((لكل شاعر كبير رؤية للحياة على وجه من الوجوه وهذه هي ميزة الشاعر الكبير))[٤٤] .

ولما كان الشاعر من أكثر الناس وعياً وثقافة ، فانه من أكثر الناس إدراكاً للحياة ، ومن ارفعهم إحساساً بها ، وبما ينطوي عليه من فاعلية وتوتر وديناميةٍ قلقة ، والشاعر مطالب بهذا الوعي ؛ لأنه صانع حياة ، ومدرك بأنّ اكبر خطر يحيق به هو أن يعيش غافلاً عن هذه الحياة من دون أن يشعر بها. فقلقه سببه توقف زمنه الحاضر وتجمده ، وهذا ناتج أساساً عن ضحالة الحياة النفسية التي يعيشها والواقع المتأزم الذي يحياه . فالرؤية وفق هذا التصور تكون امتداداً لحالة الوعي المتأزم بمواصلة الحياة ، فتواجد الشاعر في الحاضر لم يصحبه أيّ تطور أو تحول يدل على أن الحياة تسير بيسر وسهولة وعذوبة ، لذا تكون الحياة متوقفه وكأن الشاعر لم يبرح ماضيه بعد ، وهذا هو الذي أوحى بمثل هذه الرؤية المأساوية المحكومة بمنطق الواقع الخارجي ، التي هي نتاج انفعالات ذاتية وتقلبات مزاجية آنية ، فضلاً عن خيبة أمل بالغد المنشود . ولعلنا أمام هذا النص القادم ندرك مدى

استهانة الشاعر بالحياة الحاضرة والخاضعة للضيق والحرمان الذي يلفّ تلابيب الذات ويجعلها خائفة تترقب إيقاع الموت البطيء:

أأيّامُ لهوي : هل مواضيك عُوَّدُ وهل لشبابٍ ظلّ بالأمس منشدُ

أقول وقد شابت شواتي وقوّست قِناتي وأضحت كِدْنتي تتخدَّدُ

ودبَّ كَلالٌ في عظامي أدَّبني جنيبَ العصا أنأدُّ أو أتأيّدُ[٤٥]

ويبدو واضحاً أن فراغ الحياة وخلوها من المعنى ، وانعدام التجديد فيها، يزيد من حدّة الإحساس بها ، فتكون وطأة الشاعر كبيرة عندما يلمس انه منفصل عن الحاضر واقع تحت إساره ، ولعل اخطر ما في هذه المعاناة أن ذات الشاعر لم تعد تخاطب الحياة إلا بالزمن الاسترجاعي الذي يضفي نوعاً من اللاوعي أو اللاتصديق أحياناً ؛ لأنه زمن ولّى وانقضى ولم يعد ذا جدوى، فإسترجاعه وتذكر أيامه يزيد من معاناة الشاعر ، أي انه لا سبيل لإعادته بوصفه زمناً منهاراً ، ولكن هذا الهروب من الواقع لا يفيد شاعرنا بشيء ؛ لان ((الإنسان كائن عابر يظل دائماً خاضعاً بقوى الزمن المدمّرة ، وكل محاولة منه للتغلب على فوضى الحياة الفانية وتيار الزوال الجارف تبوء بالفشل))[٤٦].

وزيادة في القول : إن صراع هذين الزمنين الماضي والحاضر من شأنه أن ينشأ عنه ردّ فعل كل منهما اتجاه الآخر ، ولكي يحافظ ابن الرومي على توازنه النفسي وسط هذا التداخل والتمازج الحياتي راح ينفصل عن المجتمع والتقوقع في الذات على حساب الآخرين ، وهذا من شأنه أن يصعّد الإحساس بتضخم الذات ، ويعمق من معاناتها الحاضرة ، فيما هو منفصل عن الماضي غير آمل بالمستقبل ؛ لان الحاضر كما يرى أرسطو : ((لا تجري فيه حركة وبالتالي لا يكون فيه جريان للزمان . فالشعور بالآن لا يتم حقاً إلا في حالة القلق الهائل . وهذا ما يفسّر لنا لماذا نشعر بطول الزمان جداً في حال القلق والخوف ، بينما نشعر بقصره كل القصر في حال الأمن والسرور))[٤٧] .

والذي يبدو ظاهراً أن انفعالات ابن الرومي وحالاته النفسية التي تنتابه من دون سبب ظاهر ، كالقلق والخوف والتشاؤم – كلها مجتمعة – لا يمكن تبريرها من غير الحياة التي يعيشها ، فالضجر والتعاسة التي يستشعرها ، والعدمية التي يغرق فيها ، مصدرها جمود الحياة وعدم فاعليتها ، ولكن ما يسترعي الانتباه حقاً ، هو هذا الاتكاء الملّح على الماضي(زمن الشباب) ففي استرجاعه تحترق النفس الداخلية توتراً ليتأكد من خلالها الانفصال مابين الداخل والخارج ، وهذا الانفصال من شأنه أن يولد صدمة انفعالية وإشكالية معرفية لدى المتلقي ، يصعب توقعها ؛ لأنها من قبيل الذهنية المنزوية والمغيّبة لرؤية الشاعر في الحياة . كون ((الحياة حركة امتداد زمني واتساع مكاني معاً ، والزمن هو الذي يخترق حركتها))[٤٨] .

بهذه الرؤية المتشابكة والعميقة تبدو علاقة الشاعر بالحياة المأزومة ، علاقة إشكالية مأزقية ؛ لكونها لا تنطرح في شكل سلسلة من الافتراضات والحلول المحتملة، وإنما في سلسلة من المشكلات المستعصية ، التي على الشاعر مجاهدتها وإيجاد صيغ التلاؤم معها ، والخروج من المتاهة ، متاهة معاناة تيار الزمن المرفوض ، وهواجس الإحباط المصاحبة له ، وحس التناهي المسيطر على الذات .

من ذلك نفهم أن فلسفة القهر الاجتماعي التي يمرّ بها الشاعر تمثل الوجه الآخر للحياة ، فيأتي الموت ليضفي على الذات نوعاً من الحزن الوجودي الذي هو اقرب إلى حس الفناء ، منه إلى الحزن العادي .فعالم الشاعر المفرغ ورؤيته السوداوية للأشياء ، كلها ، تمثل خيبة الأمل التي تعقب انتهاء كل لحظة منتشية ، ومعاودة الاستفاقة على الواقع ومحاصرته بجملة من الأفكار المليئة بالأحزان . فالخوف الذي يستبد به والسأم الذي يلفّه والسويداء التي تفترسه ما هي إلا الوجه الآخر لمأساة الحياة، ألا وهو الموت . فالمعاناة هي نفسها التي ترغم الشعراء ، أن يغرقوا في ذكر الموت ، فاهتمام الشاعر بالموت ، في كثير من الأحيان ، إنما يعني في احد جوانبه ابتغاء تحريك (الآخر) وتنبيهه للسير في الطريق القويم ، وتحمله مسؤوليته في تغيير المجتمع . وهذا يعني محاولة اكتشاف الأثر الذي تحدثه الأحداث المتراكمة التي يمر بها المجتمع . ويصدق القول عندما نطالع في اغلب نصوص شاعرنا وهو يتحدث عن الموت برؤية إنسانية وعظية :

غدا الموتُ والسُّلوان حتماً على الورى كِلا ذا وهذا للفريقين راصدُ

فلا تجـعلنّ الموت نُكراً فإنّما حياةُ الفتى سرٌ إلى الموت قاصدُ

ولا تحسـبنّ الحزنَ يبقى فإنُّهُ شـهابٌ حريقٌ واقدٌ ثمّ خـامدُ

ستألفُ فقــدانَ الذي قد فقدته كإلفكَ وجـدانَ الذي أنتَ واجدُ

على انّـه لابُدّ من لذعِ لوعـةٍ تهبُّ احاينا كما هبَّ راقدُ(٤٩)

يبدو واضحاً ، أن تصوير الموت بهذه الطريقة ، يعني أن رؤيـة الشـاعر قد تبدلت وتحولت إلـى رؤية تراجيدية تشيع فيها مظاهر الغربة والانقطاع عن العالم ، وبذلك يتوسع فضاء الشاعر أكثر فأكثر لتصوير الهوّة العميقـة بين عالمين متقابلين في رؤيتـه للكون : عالم يلتصق بـه ويتوق إلـى دوامـه وتحقيقه ، وهذا هو عالم الحياة ، وعالم آخر ، يسخط عليـه ويحذر منـه ولا يتمنـى قدومـه، انـه عالم الموت . وهذه مشكلة معقدة يتداخل فيها الذاتي بالموضوعي ، والماضي بالحاضر ، فالطموح الكبير إلى الحياة ، والانشداد إلى الماضي هو الذي جعل الشاعر يستسلم لتويهمات القدر ويبكي على شبابه الزائل :

يا شبابي وأين منّي شبـابي أَذَنَتْني حبـالهُ بانقضـابِ

دولةٌ يغمرُ الزمـان فتـاها سُوّدتْ بالسّوادِ سمْيا الشّبـابِ

لَهْفَ نفسي على نعيمي ولهوي تحت أفنـانهِ اللّدِان الرّطـابِ

وَمُـعَزّ عن الشـبابِ مؤسّ يمشيب اللّداتِ والأتــرابِ

قلتُ لمـا انتحى يَعُدُّ أسـاهُ مِن مُصابٍ شبابهُ فمصـابِ

ليسَ تأسُو كُلُومُ غيري كُلُومي ما بهِ ما بـهِ وما بي وما بي (٥٠)

إنّ الحديث عن التجربة ، يعني أن الشاعر قد راودها وأيقن ملامحها ، فهو عندما يعطي قصيدته عمقاً أكثر من عمقها الظاهر، فإنما يريد أن ينقل رؤيته من مستواها الشخصي الذاتي إلى مستواها الإنساني والجوهري . وهنا تكون المقاربة بين محاولة الكشف عن أسرار وماهية الماضي وبين الحديث عن إشكالية هذه التجربة بوصفها تصوراً لخصوصيتها ، وحينما يعجز الشاعر عن تخطي الواقع المؤلم ، ينشط فعل الذاكرة لتلتقط التفاصيل التي يزخر بها الماضي الذي تحاوره وتستكين إليه الذات الشاعرة .

وبسبب هذا الإدراك ، تكون تجربة شاعرنا ورؤيته للحياة والموت قد تمكنت من تأسيس فرادتها وخصوصيتها حين استطاعت استيعاب واقعها ، وتعرية خباياه ، وتجلية زيفه ؛ لتوحي لنا بجدّة الاكتشاف وفرادة الرؤية ، واصالة التشخيص .

ومهما يكن فإنّ رؤية ابن الرومي لكل تفاصيل الحياة كانت عبارة عن احتجاج سلبي مؤثر ، ذي طابع تغييري مبطن برفض احتجاجي ضد كل ما من شأنه أن ينغص هذه الحياة أو ينال منها . فالتناغم بين الشاعر والحياة ، يطرح إشكالية الإحساس بالتفاوت ، فلا عجب إذا وجدنا أن الماضي بكل ما يحمله من حضور عند الذات ، يعني القوّة الكامنة التي يختفي خلفها الشاعر ، ولا يتحقق التوازن النفسي إلا به ؛ لأنه يعني الانتماء إلى الواقع والرغبة في تغييره . أما الحاضر فانه واقع قلق مفروض على الشاعر . والمعادلة هنا ، تكمن في شكل الحياة التي يتمناها شاعرنا ، بمعنى آخر ، أن الأمر يتعلق بالروابط القائمة بين الشاعر وذاته ، أي البحث عن الذات داخل أطار المجتمع.

والشاعر كأي إنسان ، فان رسالته في الحياة تفرض عليه أن يمنح الناس نوعاً من الرؤية ، وان ينمي فيهم ثقة الفهم والوعي والإدراك ، فطبيعي إذن ، أن تتأسس خيوط الرؤية على نسيج الواقع المعيش ، وان ترتكز هذه الرؤية على معالم واضحة في الذاكرة ، بحيث تصبح فلسفة الشاعر في الحياة ذات دوافع إشكالية ومظاهر معقدة لا يكون الشاعر طرفاً فيها فحسب ، وإنما صانعها ؛ لأنها من نتاج رؤيته الفكرية .

وبما أن مشاهد الحياة والموت بالنسبة لشاعرنا هي نتاج مجموعة من التطورات والإحداث الاجتماعية ، لذا تكون رؤيته نسيجاً متلازماً من دلالات نفسية بفعل زمنها الخاص ، ذلك أن إنتاج الرؤية لا يخضع للتفسير نفسه عندما يتعلق الأمر بالحياة والموت ؛ لان الأمر يفترض تغييراً في موقع الذات، بمعنى أن الأمر يتعلق بالروابط القائمة بين الشاعر وذاته في المجتمع الخاضع لتغيرات التبديل في القيم والاتجاهات .

الهوامش

١- ينظر ، المعجم الفلسفي : ١/٦٠٤-٦٠٥.

٢- ينظر ، في حداثة النص الشعري ، دراسات نقدية :٢٥.

٣- ينظر ، الفن والأدب بين الرؤية والرؤيا ، جريدة الثورة العراقية ، صفحة ثقافة ١/١١/١٩٨٦.

٤-ينظر ، في حداثة النص الشعري : ١٦.

٥-حصاد الهشيم :٢٨١.

٦-ديوان ابن الرومي : ١/٤٠١.

٧-سيكلوجية الإبداع في الفن والأدب : ١٠١-١٠٢.

٨-العزلة والمجتمع : ٩٠.

٩-الديوان : ١/٢٨٠.

١٠- سيكلوجية الإبداع في الفن والأدب : ١٧٠.

١١- الديوان : ١/٢١٥.

١٢- الديوان: ٣/١٠٣٨.

١٣- الديوان : ١/٩١.

١٤- الجمال في الوعي الشعري العربي قبل الإسلام : ١٥٤.

١٥- موقف الإنسان التناقضي من الوجود ، مجلة الأديب ، ج٥، ١٩٦٤، : ٩.

١٦- الديوان : ٣/١١٦٨.

١٧- مولد الفكر وبحوث فلسفية أخرى : ٢٣.

١٨- الديوان : ٣/١١٤٠.

١٩- التحليل النفسي للفنان وآثاره : ٨٨-٨٩.

٢٠- ينظر ، ابن الرومي في الصورة والوجود: ١٤٤.

٢١- ينظر ، دراسات في الأدب العربي : ١١٢.

٢٢- ينظر ، مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني : ١٥٢.

٢٣- الديوان : ٦/٢٤٢١.

٢٤- رمزية المرأة في الرواية العربية : ٥٠.

٢٥- ينظر ، القصيدة كاملة في الديوان : ١/٣٣٠.

٢٦- الديوان : ٦/٢٤١٩-٢٤٢٠.

٢٧- اللغة والتفسير والتواصل : ١٧٧.

٢٨- الديوان : ١/٣٥٧.

٢٩- اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري : ١٠٩.

٣٠- الديوان : ٧٦٣/٢.

٣١- الإنسان بين الجوهر والمنظر :١٣٤ .

٣٢- م.ن : ١٣٤.

٣٣- الديوان : ٢٥١٦/٦-٢٥١٧.

٣٤- الديوان : ١٩٢١/٥.

٣٥- ابن الرومي ، خليل شرف الدين : ١٢٢.

٣٦- الديوان : ٢٥٦/١.

٣٧- الديوان : ١٩٢١/٥.

٣٨- الديوان: ٢٠٩٢/٥.

٣٩- الشعرية العربية : ٧١.

٤٠- الديوان : ٩٦٨/٣.

٤١- ابن الرومي، العقاد: ٥٧.

٤٢- الديوان : ٢٥٠٢/٦.

٤٣- الديوان : ٥٨٤/٢-٥٨٥.

٤٤- ابن الرومي، العقاد : ٣١٩.

٤٥- الديوان : ٥٨٦/٢.

٤٦- لحظة الأبدية : ١٦٢.

٤٧- الزمان الوجودي : ١٧٤.

٤٨- لغة الشعر العربي : ٨١.

٤٩- الديوان : ٨٠٠/٢-٨٠١.

٥٠- الديوان : ٣٣٤/١-٣٣٥.

المصادر والمراجع

١- ابن الرومي ، خليل شرف الدين ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت، ١٩٨٠.
٢-ابن الرومي ، حياته من شعره ، عباس محمود العقاد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط٧، ١٩٦٨.
٣-ابن الرومي في الصورة والوجود، دكتور علي شلق ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت، ط١، ١٩٨٢.
٤-اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ، قحطان رشيد التميمي ، دار المسيرة ، بيروت .
٥-الإنسان بين الجوهر والمنظر ، اريك فروم ، ت سعد زهران ، سلسلة كتب علم المعرفة ، ١٩٨٠.
٦-الجمال في الوعي الشعري العربي قبل الإسلام ، أطروحة دكتوراه ، هلال جهاد ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ١٩٩٢.
٧- حصاد الهشيم ، إبراهيم عبد القادر المازني ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، ط٢، ١٩٦٧.
٨- دراسات في الادب العربي ، انعام الجندي ، دار الاندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٦٧ .
٩-ديوان ابن الرومي ، تح د. حسين نصار ، مطبعة دار الكتب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
١٠- رمزية المرأة في الرواية العربية ، جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، بيروت ، ط١، ١٩٨١.
١١-الزمان الوجودي ، عبد الرحمن بدوي ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان، ط٢، ١٩٧٣.
١٢- سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب ، يوسف ميخائيل اسعد ، مشروع النشر المشترك العراقية ، المصرية ، د.ت.
١٣-الشعرية العربية ، ادونيس ، دار الآداب ، بيروت، ١٩٨٥.
١٤-العزلة والمجتمع ، نيقولاي برد يائيف ، ت فؤاد كامل ، ط١، دار النشر المشترك ، بغداد ، ١٩٨٦.
١٥-علم النفس والادب ، سامي الدروبي ، دار المعرفة ، مصر ، ١٩٧١ .
١٦-الفن والأدب بين الرؤية والرؤيا ، فاضل ثامر ، جريدة الثورة العراقية ، صفحة ثقافة ، ١٩٨٦.

١٧-في حادثة النص الشعري ، دراسات نقدية ، د. علي جعفر العلاق ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩١.
١٨-لحظة الأبدية ، سمير الحاج شاهين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ط١، ١٩٨٠.
١٩-لغة الشعر العربي ، د. عدنان حسين قاسم ، الجماهيرية الليبية ، ط١، ١٩٨١.
٢٠-اللغة والتفسير والتواصل ، مصطفى ناصف ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٩٥.
٢١-المعجم الفلسفي ، جميل صليبا ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، د.ت.
٢٢- مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني ، د. حسين عطوان ، دار الجيل ، بيروت ، ط٢، ١٩٦٧.
٢٣- موقف الإنسان التناقضي من الوجود ، اريك فروم ،عرض وتلخيص ، أميل توفيق ، مجلة الأديب ، ج٥، بيروت ،١٩٦٤.
٢٤- مولد الفكر وبحوث فلسفية أخرى ، جورج سنتانا ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت .